المرأة فى الأندلس

للمرأة فى الأدب العربى أثر واضح لا يقل عن أثرها فى الآداب الأخرى . ففيه من روحها سمو ، ومن وحيها إلهام ، ومن مشبوب العاطفة ضرام .

تمثلت فى خيال الشعراء واستولت على مشاعر الأدباء ، فأنطقتهم بروائع الشعر وطرائف الأدب هياماً بها وحنيناً إليها وافتناناً فى وصفها وتصويراً لمحاسنها .

ولم تقنع هى بأن يكون حظها منه التغنى بها ، فلا يكون له صدى من نفسها وتجاوب من حسها . . . بل شاركت الرجال فى أدبهم مؤثرة فيه ومتأثرة به . فنقلت عنهم ورووا عنها ، ونظمت الشعر ، وأجادت الغناء ، وطلبت كل ما يصقل العقل ويهذب النفس ويرقى الشعور ، خصوصاً فى عصر ازدهار الحضارة العربية ، وما أتاحته من حرية عقلية واسعة .

فبعث ذلك فى الأدب العربى من فجر نهضته حياة زاخرة بالقوة ، على تعاقب العصور واختلاف البيئات ؛ فكان لكل إقليم طابعه الخاص ولونه الواضح من أقصى المشرق إلى أقاصى المغرب .

ذلك شأن المرأة فى العالم العربى ، تستوى فيه الحرائر والجوارى . . . وإن كان أدب الجوارى فى المشرق أكثر وضوحاً وتأثيرهن فيه أشد ظهوراً .

فقد كان تأديب الجوارى حرفة ، وتثقيفهن صناعة ، وتهيئتهن لإمتاع العقل والروح وسيلة مقصودة وغاية مطلوبة .

فاتجهت الرغبة إليهن والسعى فى طلبهن ، ليسر اللقاء فى غير خشية أو حرج . وهل كن إلا متاعاً من أنفس المتاع أو طرفة من أمتع الطرف يقتنيها من أتيح له فضل من مال ، ويتهادى بها ويغالى كل ذى جاه أو سلطان !

لقد أفدن من الأدب إقبالا عليهن وإعزازاً لهن . وأفاد منهن الأدب شعراً رقيقاً ووصفاً دقيقاً وذخيرة ممتعة تفيض بالحياة وتنبض بأدق خفايا الشعور وخلجات النفس .

ولم يكن حظ الحرائر بأضعف من حظ الجوارى فى الحرص على التزود من المعرفة ، ولم يحل الرجال بينهن وبين أن يبلغن من العلم والأدب ما يردن .

ولئن حرم الرجال من مجالستهن ، ولم يؤثر عنهم سعى ظاهر إليهن أو اندفاع نحوهن ، فما كان ذلك رغبة عنهن أو عزوفاً عن حديثهن ، ولكن الظروف قل أن - واتتهم ، فلم يكن اللقاء ميسراً فى كل آن ، فهن أسيرات بيئة محافظة غالباً وتقاليد مرعية وحفاظ من الرجل يصونهن عن التبذل والابتذال .

فهن قريبات إلى قلوب الرجال بعيدات عنهم . ولعل الكثيرات إن تحدثن فمن وراء حجاب ، وإن خالطن ففى رفق وعلى استحياء .

هذا فى المشرق . أما فى أقصى المغرب فقد كان حظ المرأة فى الأندلس من التحرر أكثر من أختها بالمشرق ، وتحللها من القيود أبعد غاية ، ونشاطها المثمر أعم وأقوى ، بعد أن فك عقالها وأصبحت طليقة من أسر موهوم ، وتفتح قلبها للحياة الحلوة ، واستمتعت بما فيها من جمال فغردت على كل فنن ، وشدت ماطاب لها أن تشدو ، لم يحل دون ذلك حائل ولم يمنع منه حجاب .

أعجب الرجل بكل هذا واطمأن له ولم يجد فيه شذوذاً ، فسعى إليها وأقبلت عليه ، وإذا بغذائه الروحى غذاؤها ، ونشاطه الأدبى من وحيها وفى ظلها ، والانتاج العقلى شركة بينهما .

وليس هذا فى واقع الأمر بعجيب ؛ فللبيئة أثرها ، ولامتزاج الأجناس نتائجه ، وللمؤثرات الاجتماعية ضروراتها .

لقد كانت الأندلس درة فى تاج الإمبراطورية العربية تتلألأ فى جبين الدهر .

وكانت طبيعتها الضاحكة تجلو صدأ النفس وتذهب بأكدار الحياة ، وتلهب الشعور وتذكى الخيال وتسحر الألباب . وفى جوها تنفست الحضارة العربية وازدهرت ، وفى أحضان هذه البيئة الغنية شيدت القصور ، ومن حلاها ازينت فأبدعت زينتها .

وقد انعكس سحر الطبيعة على أهلها أخلاقا عاطرة من عبيرها ، ورقة ذوق من جمالها ، وخفة روح من نسيمها . فاتسموا بالظرف وعذوبة المنطق ورشاقة التعبير والتأنق فى الملبس والتفنن فى أسباب المتعة وانتهاب المسرات .

ثم إنها أفادت من المشارقة الفاتحين طيب عنصر وكرم عرق .

فاجتمع لأهلها عزة المشرق وسحر المغرب ، وابتسمت لهم الدنيا فرتعوا

فى خيراتها وارتووا من النعمة ، واستمتعوا بألوان من الترف دونها غاية المتمنى .

كذلك يسرت لهم الحضارة أسباب الرقى العقلى والنشاط العلمى .

فأتيح للدولة الفتية فى المغرب أن تسامى دولة المشرق فى سلطانها وتنافسها فى جاهها ، و إن كانت تستمد من معينها وتغترف من بحرها ، ثم تنفخ فيه من روحها فتحيله أدباً جديداً وفنا طريفاً ، بفضل هذا الامتزاج بين خير ما فى الشرق من روح وعقل ونشاط ، وما فى الغرب من فتنة و إبداع وأسباب ثراء .

فكنت تراها موئل العلماء وملاذ الشعراء ، ومهد الفن ومرتع الظباء .

احتلت المرأة من كل هذا مكاناً ممتازاً وظفرت برعاية كريمة .

ففلت مدن الأندلس بالكثير من الأديبات المشهورات ، وازدانت مجالس الأدب بكرائمهن ، فكانت الحرائر أو العربيات كما كن يسمين زهرة النوادى .

ولسنا بسبيل الإحصاء إن ضربنا بعضهن مثلا ولا علينا إن تجاوزنا بالحديث عن الجوارى إلى هؤلاء العربيات فهن قصدنا .

ولندع قرطبة حاضرة الحواضر وغرناطة عروس المدائن إلى حين ، لنلقى :

فى المرية منهن أم الهناء بنت القاضى أبى محمد عبد الحق ، فقد كانت «حاضرة النادرة سريعة التمثل بالشعر ، من أهل العلم والفهم والعقل » ، ولم يحل بينها وبين هذا النشاط والشهرة أن أباها كان قاضى المدينة !

وهل يتعارض وقار القاضى ومرح الأديب ؟ لقد اجتمعا فى الأندلس .

وفى وادى آش شاعرة مشهورة كانوا يطلقون عليها خنساء المغرب ، هى حمدة (أو حمدونه) بنت زياد ، إن كان فينا من يجهل اسمها فلعل الكثير منا يحفظ هذه الأبيات ويتمثل بالأخير لنوع من البديع :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ... وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتىَّ وأدمعى ... ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

ولئن قيل إن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية دون حمدونة فلا ضير فهى أندلسية على كل حال ، وكلتاهما شاعرة مشهورة مذكورة .

أما قرطبة وغرناطة فما أكثر من احتفلت لهن المجالس ، وعمرت بهن النوادى !

وهل يجهل أحد ولاّدة إذا ذكرت قرطبة ؟ أو يجوز إهمال نزهون أو حفصة إن تحدثنا عن غرناطة ؟

أما قصة ولاّدة بنت المستكفى وابن زيدون فهى أشهر من أن نفيض فى ذكرها . . .

ألم تكن بنت خليفة ساء حظه وخبا نجمه بانقضاء دولته وقيام حكم بنى جهور ، فما حال ذلك دون أن يلمع فى سماء قرطبة نجمها وأن يفتن الناس بها .

كانت ذات جمال بارع ، وحسن فاتن ، ودل وتيه عرفته من نفسها وأحست إعجاب الناس بها فأعلنت ذلك التيه والدلال ، فكتبت بالذهب على طراز ثوبها الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الأيسر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وكانت خفيفة الروح حلوة النكتة واسعة الاطلاع فى الأدب مشغوفة بنظم القريض ، تتذوق الغناء وتحسن صنعته .

وكان ناديها كعبة الأدباء والأشراف والأعيان ومجلس السمار ، يغشاه ويحرص عليه أبو عبد الله البطليوسى من سادة العصر ، وابن عبدوس من كبار قرطبة وأعيانها ، وذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون كاتب ذلك العصر وشاعره . وكانت ولادة واسطة العقد ، وتزينه درة أخرى هى مهجة القرطبية صفية ولادة وتلميذتها فى الأدب ومنافستها فى الجمال والاستئثار بالقلوب .

كانت ولادة مصدر إلهام لفريق ومثار حسد وغيرة لآخرين ، وكلهم يحنّ إليها ويتهافت عليها .

ولها معهم نوادر وحوادث ولها بهم صلات . . . أنطقت ابن زيدون بأروع الشعر ، وأثارت فى نفسه أرق العواطف ، وأوقعت بينه وبين ابن عبدوس أبغض فرقة .

وكان ذلك مصدر عبث ودعابة تارة ، وتهكم لاذع وهجاء مر تارة أخرى . وما كانت رسالة ابن زيدون الهزلية التى عبث فيها بابن عبدوس وتهكم عليه إلا من وحيها وهى التى دفعته إلى تحبيرها .

ألم تكن هى أيضاً تنتهز الفرصة للتهكم به ومداعبته دعابة قاسية ؟

لقد مرت بابن عبدوس وهو جالس أمام داره يملؤه الكبر والعجب وحوله جلاسه وأمامهم بركة تجمعت فيها مياه الأمطار وتلوثت بالأقذار .

رأت ولادة هذا المنظر القبيح يجمع بين قذر المجلس وخيلاء الجالس ، فالتفتت إليه وقالت يا ابن عبدوس ! فابتهج للنداء وأقبل عليها بسمعه وبصره ، فما زادت على أن أشارت إلى البركة وتمثلت ببيت أبى نواس :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما نهر

فبهت لسماعه وخجل من جلاّسه وارتد كسير النفس زائغ البصر .

أما هى فقد انصرفت مزهوة بما أتيح لها من إذلاله .

أرأيت كيف أحسنت الاقتباس و برعت فى قلب المعنى من المدح إلى الذم !

وهل نعجب لهذا وهى الأديبة الشاعرة التى تتصرف فى كل فن وتضرب فيه بسهم ! فقد كان نظم القريض لها طبيعة ، وتراسلها به عادة ، وعدم الحرج من ذكر ما تشعر به أو يجول بخاطرها من العواطف والأهواء سجية .

وأى حرج فى أن تفصح عن هواها ومكنون عاطفتها ، فتكتب إلى ابن زيدون وقد ظل يرقب رؤيتها بعد طول تمنع :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وهل ترى غريباً أن تذكر الفراق ولوعته وساعة الوداع وحرقتها !

فتروى عنها هذه الأبيات المشهورة :

ودّع الصبر محب ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً ورسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

فاذا صحت نسبتها إليها فلا عجب ، فقد كان ذلك مألوناً شائعاً فى الأندلس . وما أكثر ما أفصح النساء عن هواهن بأصرح من هذا .

لقد جمعت ولادة إلى بارع الجمال بارع الأدب ، والتصرف فى فنون القول : تشكو إذا أحبت ، وتعتب إذا هجرت ، وتهجو إذا أبغضت ، وتفحش فى الهجاء أحياناً حتى لتكاد تبذ ابن الرومى فى إفحاشه ، وهى مع كل ذلك حبيبة إلى كل قلب قريبة من كل نفس .

وبعد فهذا لون من حرية القول وصورة من أدب النساء عرضنا عليك طرفاً منه فى شخص ولادة .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنا نتجنى عليهن أو نسرف فى تعميم الحكم حين نسوق الرأى ؛ فالمقَّرى نفسه يقول فى حديثه عن ولادة : « وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمُر فيه من النادر و إنشاد الشعر كثير لما اقتضاه صرها من مثل ذلك ! »

فهذا حديث ولادة فى قرطبة ، وقد عاشت فى القرن الخامس حتى نيفت على الثمانين . أما غرناطة وشاعرتها نزهون القلاعية فما أقوى الشبه بين الأديبتين وأقرب التوافق بين الشاعرتين فى المزاج وخفة الروح ورقة الشاعرية وما أتيح لكل منهما من الحظوة ودواعى الشهرة !

وليس بينهما من فرق إلا أن ولادة كانت بنت خليفة من خلفاء الأندلس . أما نزهون فلم تسعد بذلك أو لم تنكب به نكبة ولادة فى أبيها ، بزوال سلطانه وضياع ملكه .

ولعلها كانت بنت عالم أو أديب ، وقد تكون ابنة أحد الأشراف أو الأعيان .

فما نعلم عنها إلا أن اسمها نزهون بنت القلاعى . ولايعنينا هنا تقصى حسبها ونسبها . و إنما يكفى أن نعرف أنها كانت من الفتيات اللاتى نهض بهن أدبهن وظرفهن وجمالهن ، فاحتضنتها غرناطة وهيأت لها كل أسباب الظهور .

فقد اجتمع لها — إلى جمالها وظرفها — حس مرهف ونفس شاعرة وبديهة حاضرة واطلاع واسع أعانها على الامتياز فى المسامرة والجلد على المساجلة ، فوق مقدرتها على نظم القريض ، فأعجب بها الشعراء وناظرها الأدباء وهام بها الأشراف فسعوا إليها ، فاستمعت لهم وتحدثت إليهم وجادلتهم فخلبتهم وغلبتهم .

وكانت هى الأخرى فى غرناطة كولادة فى قرطبة درة المحافل وزهرة المجالس .

ولئن كان ابن زيدون هام بولادة وشقى بحبها كما سعد بقربها ، فلعل

نزهون لم تكن أقل منها شأنا ولا أضعف حظاً . فقد فتن بها الوزير أبو بكر ابن سعيد فتنة جعلته لا يطيق لها فراقاً ، وهو أديب شاعر ، فهو بجمالها مسلوب الفؤاد وبأدبها وظرفها مفتون . إن غابت عنه راسلها ، و إن سعى إليها أو زارته طارحها الشعر وبثها مكنون النفس .

وكم كانت لها مجالس معجبة مع ابن سعيد ضمت أمثال أبى بكر الكنتدى الشاعر وابن قزمان الأديب وأبى بكر المخزومى الأعمى وغيرهم ، وجرت فيها النوادر المستملحة والطرف المستعذبة ، ومطارحة الأشعار ، والاستمتاع بأعذب الغناء .

وكانت نزهون تشارك فى كل هذا ، فتسامر وتداعب ، وتنقد وتقسو فى النقد .

ولعل فى رواية مجلس لها مع المخزومى ما يكشف عن دقة ملاحظتها وميلها إلى الدعابة ولو خرجت عن حدود الوقار المرسوم .

وذلك أنه وفد يوماً على غرناطة ، فدعاه الوزير أبو بكر بن سعيد إلى مجلس من مجالسه وقد عطر بالند والعود — وكانت نزهون حاضرة — فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والأزهار وهزّت عطفه الأوتار — كما يقول نفح الطيب — طرب وأنشد :

دار السعيدى ذى أم دار رضوان ... ما تشتهى النفس فيها حاضر دان
سقت أباريقها للند سحب ندى ... تحدى برعد لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطراً ... يحيى به ميتَ أفكار وأشجان
هذا النعيم الذى كنا نحدثه ... ولا سبيل لـه إلا بآذان

فلاحظ أبو بكر على الشطر الأخير ملاحظة عابرة .

وأما نزهون فكان لها موقف آخر مع المخزومى أدق وأشق ، ولم ترهب سلاطة لسانه فقد كان شديد الشر معروفاً بالهجاء مسلطاً على الأعراض . قالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجرد ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم إلا بالسماع ولا يبلغ إليه بالعيان . . .

ثم إنها لم تسكت عند هذا ولعلها حرصت على إثارته و إن كانت ستتقاضى جزاءها على التعرض هجاء مرًّا وطعناً بذيئاً . . . فهى تستدرك على ملاحظتها وتعتذر عن نقدها بما هو أقسى وآلم فتقول :

ولكن من يجئ من حصن المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة

بمجالس النعيم . . . كانت مفاجأة للمخزومى لم يتوقعها ، فتنحنح وتهيأ للجواب وكأنها أرادت أن تهيجه ليخرج عن حده فقالت : ذبحة .

ولكنه تمالك أول الأمر وقال : من هذه الفاضلة ؟

فتعمدت إثارته وقالت : عجوز مقام أمك ! فما بقى فى قوس الصبر منزع ، وأجاب : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هى نغمة . . . تشم روائح ها هنا على فراسخ . . . وأراد الاسترسال . . . فعمل الوزير أبو بكر بن سعيد على تدارك الأمر وقال : يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة

فأجاب : سمعت بها لا أسمعها الله خيراً ولا أراها إلا . . .

وتطاول ، وتبادلا هجاء مقذعاً وطعناً مراً . . . لعل أهونه قوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا
توارك نزهون قواصد غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونضرب صفحاً عما أجابت به او قاله مما جعل ابن سعيد يحلف ألا يزيد أحدهما على الآخر كلمة هجاء . . . ثم أصلح بينهما .

فهل سمعت فى حديث النساء مثل هذه الصراحة والجرأة فى المساجلة ولو انحرفت عن السبيل على نحو ما رأيت ؟

إن كان هذا قليلا أو نادراً فى المشرق فما أكثر ما نراه فى المغرب . . . وإن دل على شئ فانما هو مظهر لهذه الحرية الواسعة فى الحديث ، ونتيجة لهذا التسامح الذى أباح للأندلسية ما لم يكن يرضى عنه أو يُطمأن إليه لمثلها من الحرائر فى المشرق .

وشاءت المصادفة أو قضت البيئة بأن تكون نزهون كولادة فى سرعة الخاطر وحلاوة النكتة وتصيد الفرصة للفكاهة والمداعبة .

فاذا سمعت ابن قزمان يتحدث فى مجلس ابن سعيد — وقد أضافه — ويطول الحديث والنقاش والمباراة ، فيعجبها منه ذلك ، ويغريها به جبة صفراء كانت يتزيا بها على هيئة الفقهاء فى ذلك العصر ، فتقول : أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل إلا أنك لا تسر الناظرين . . . فيرد عليها بجواب لاذع فيه فحش أيضاً .

وكذلك هى فى حضور بديهتها فقد كانت تقرأ على المخزومى (أطرافاً من الأدب وفنوناً من الشعر) وقد عاد الصفاء بينهما ، فدخل عليهما الكنتدى .

وقال يخاطب المخزومى :

لو كنت تبصر من تجالسه

— وانتظر أن يجيزه فأفحم . . . وما وجد شيئاً فأسعفته نزهون وأجازت : —

لغدوت أحرس من خلاخله
البدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح فى غلالته

كانت شاعريتها وظرفها سبباً فى أن يفتن ابن سعيد بها، ويشقى ببعدها فيعاتبها على تجنيها أو توهمه هجرها و يرسل إليها :

يا من له ألف خل من عاشق وصديق
أراك خليت للنا س منزلا فى الطريق

فتكتب إليه لتنفى عنه الوهم وتبين منزلته عندها :

حللت أبا بكر محلا منعته سواك وهل غير الحبيب له صدرى
و إن كان لى كم من حبيب فانما يقدم أهل الحق حب أبى بكر

وليس يهمنا ضعف الأسلوب ولا أن نشير إلى ما فى الشطر الأخير من استغلال لطيفة ، لاشتراك ابن سعيد والخليفة الأول أبى بكر الصديق فى الكنية فتستعير رأى جماعة المسلمين فى تقديم الصديق على غير ما يراه الشيعة من تقديم الامام على ، لتسجل به حب أبى بكر بن سعيد و أنه أولى بالتقديم فى رأى أهل الحق . . .

لقد أردنا من ذكرهما بيان ما فى شعرها من صراحة فى القول و إفصاح عن مكنون العاطفة تدفعها إلى تذكر حنينها إلى اللقاء وتغنيها بأوقاته . . . ولعله كان فى الليل أكثر منه فى النهار ، ور بما كانت ليلة الأحد هى الحبيبة. ألا تراها تقول :

لله در الليالى ما أحيسنها وما أحيسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

هذه نزهون وتلك ولادة ، قد ذكرنا طرفاً يسيراً من أخبارهما . ولولا الاسراف فى الطول لأتبعناهما بثالثة لا تقل عنهما حظا فى الجمال إن لم تزد عنهما إمتاعاً فى الحديث وتحللا من القيود و إفصاحاً عما تريد ، حتى لقد كتبت إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور فان قلبى إلى ما تنتهى أبداً يميل
فثغرى مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتصحى إذا وافى اليك بى المفيل
فعجل بالجواب فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل

وهذه هى حفصة بنت الحاج الركونية .

وقد لا نعدو الحق أو نتجاوز الواقع إن رأينا فى هؤلاء صورة صادقة للعربيات فى الأندلس . فما كان الأمر مقصوراً على واحدة أو اثنتين فيوسم بالشذوذ وينبو عنه القياس .

ولم تكن قرطبة أو غرناطة وحدهما منبت هذه الزهرات ومسرح أنس هؤلاء الأقوام ؛ فكل مدينة — كما قدمنا — تستمد من نفس المنبع وتفيض بماء الحياة الدافق فتروى هذه النفوس الظامئة .

وبعد أفلا ترى معى أن المرأة العربية فى الأندلس قد نالت من الحرية الأدبية فوق ما نالته المشرقية ؟ ألم تستمتع بمجالس وتتحلل من قيود ما كانت لتظفر بالفكاك منها لو كانت فى المشرق ؟

لعل هذه البيئة المرحة الطروب ، وهذا الامتزاج وتزاوج الأجناس ، وهذه الحياة الاجتماعية الجديدة ، هى التى سوغت كل هذا وأعانت عليه ، فأصبح ضرورة من ضرورات ذلك العصر .

عبد العزيز أحمد